" ما الحاجةُ إلى القواميسِ التأثيليّةِ ؟ "

بقلم: ' أندري مارتيني '[1]
ترجمة: خالد اليعبودي

لا يعني وضعُ هذا السؤال التشكيكُ في مشروعية الأبحاث التأثيلية، ولا في مشروعية التصانيف الألفبائية المخصّصة لتدوين المسارات التأثيلية لكلمات لُغةٍ ما؛ إنما نستهدف اقتِراحَ لُزوم تساؤُلِ مؤلِّفي هذه التصانيف قبل تحرير جذاذاتهم عن طبيعة الجمهور المستهدف الذي يتوجّهون إليه بأعمالهم، وهو ما يقتضي مراعاة أبحاثهم لنوعِ القُرّاء.

تُعتبر بعضُ القواميس التأثيلية أعمالاً علَمية متميزة: من أبرزها "القاموسُ المُقارَنُ للغةِ القوطيةِ" (**Vergleichendes worterbuch der gotischen sprache, 3e édition, 1939, Leyde, E, J, Brill**) ل "سيغموند فيست" (**Sigmund Feist**). نجد بهذا التصنيف تحت خانة كلّ كلمة من كلمات اللسان –بعد البحث عن التجاورات الجلية- عرضًا لمختلف الفرضيات الممكنة مع الاحتفاظ بما ثبُتتْ صِحَّتُهُ بعد التأكُّد منها أو نبذها نتيجة عدم صحّتِها. إذا كان تأريخُ الرصيد المعجمي للغة الأبرشية [:لغة الأساقفة] (**Wulfila**) غير ذي جدْوى؛ إلا أنّ وحدات هذا الرصيد قوبِلَتْ بمكافئات إغريقية، وتمّت الإشارة إلى الصيغ النادرة مع الإحالة إلى النصوص التي وردت بها وتحديد أصول عناصر الوحدات غير المرتبطة بلغة الأبرشية. وإن تواجَدَ بألمانيا أو غيرها من البلدان أشخاصٌ من أهل العلم قادرين على حذف عنصرٍ من عناصر مداخل قاموس 'فيست' (**Feist**) كان أفضل، غير أن القاموس لمْ يُوَجَّه في الأصل لأهل الاختصاص.

تتميَّزُ قواميس تأثيلية أخرى بسمةٍ مغايرةٍ: إذ إنها تتوجه أساسًا إلى جمهور واسع من الأشخاص المثقّفين دون أن تكون لهم درايةً كبيرةً بالقضايا اللسانية والفيلولوجية، غير أنّ الفُضولَ يدفعُهم إلى التقصي عن موضوعات تتصل بلغتهم وعن الصلات القائمة بينها وبقية اللغات على الأقلّ تلك التي يعلمون خصائصها. إنّ الفرق بين النوعين من القواميس لا يكمُنُ بالضرورة في تبايُن درجاتِ دقّة البحث عن المتجاورات المعروضة، والواقعُ أنّ بعض القواميس التأثيلية ذات المنزعِ العلميّ تفقِدُ قيمتَها بسببِ الإسْرافِ في عرْض مواقفِ المُصَنِّفِ، أو بسببِ التقيُّدِ الكلّي بالتراثِ.

منْ جهةٍ أُخرى لا حائلَ يحُولُ دونَ وُجودِ قاموسٍ تأثيليّ مُوَجّهٍ إلى عامَّةِ القُرّاء تتوفَّرُ فيه دِقَّةُ التصنيف إذا تمَّ اختيارُ المتجاورات بناءً على المعِيَارِ ترْفعُ اللبسَ وتُزيحُه. لكن، لِمَ الاعتراض؟ أليسَ بالإمكانِ الجمعُ بينَ الدِّقَّةِ العلميةِ والوضوحِ والاختزالِ في القاموس التأثيليّ المُوَجَّهِ للعُمومِ؟

نَقْتَرِحُ لتحقيق هذه الغايةِ أنْ يَضُمَّ كلُّ مدخلٍ منْ مداخلِ القاموسِ التأثيليّ فقرةً بحُروفٍ بارزةٍ تُجْمِلُ الخلاصاتِ، إضافةً إلى نَصٍّ مُكَثَّفٍ يُدرِجُ به المُصَنِّف كلَّ المُعطياتِ المرجعِيَةِ عنِ المَدْخَلِ وكُلّ التجاوُراتِ المُمْكِنةِ والتفسيراتِ التي لمْ يُسبَق إليها من قبل.

منَ المؤسِفِ أنْ نُشيرَ إلى صُعوبة تحقيق هذه الغاية حينما يتعلّق الأمرُ بلِسانٍ متميّزٍ بثقافته العريقة، علاوةً على أنّ المصادر التوثيقية يزدادُ حجمُها سنةً بعدَ أخرى بشكلٍ لا يُمكن لمجلّدٍ

[1] - André Martinet (1996), Pourquoi des dictionnaires étymologiques ? in : Revue « La linguistique », Vol 2, Fasc 2, pp : 123-131.

أنْ يشْمَلها، ولوْ تمَّ عرْضُها في شكلٍ مختَزَلٍ: ففي عصرنا الراهن قلَّما استندَ التأثيلُ على فرضياتٍ واعدةٍ، وغالبًا ما أصبحَ مجرّدُ التأريخِ للرصيد المعجميّ يرتكز على الجرْد الشامِلِ للنصوص.

وإذا ضمَّ القاموس التأثيلي للغة القوطية زهاء 736 صفحة من الحجم الكبير على عمودين، فلأنَّ كلَّ نصوص هذا اللسان أُدرِجَتْ بهذا العمل. فليس بالضرورة أن تتواجَد بتصانيف المهتمّين بالشأن الثقافي أدواتَ البحْثِ التي يحتاجُ إليها المُؤَثِّلون، لكن ما المانعُ من البحثِ عنْ سُبُلٍ لإرضاء الفضول التأثيلي لهؤلاء؟

إنَّ من بين أولويات العمل (المرتبطة ببناء القواميس التأثيلية) تفادي التوظيفِ المزدوج بإجراء تقسيمٍ صارمٍ للعمل. إنَّ تأثيلَ الفرنسية وتأثيل اللاتينية أمران مُتباينان. فمُؤَثِّلُ اللغة الفرنسية مُلزَمٌ حينما يقومُ بإرجاع الكلمة الفرنسية " nu" إلى الكلمة اللاتينية "nūdus " بترك مهمة ربط " nūdus " بوحدات لغوية سنسكريتية وسلافية وجرمانية وسلتية ووحدات أخرى تتطابق معها في الدلالة وتتجاورُ معها صوريا إلى مؤثلين آخرين. وسيُنْجَزُ العمل بشكلٍ جيّدٍ شريطةَ أنْ يتمَّ الانتقالُ من مصدرٍ إلى آخرَ دون أدنى صعوبة: إذ يُطالع الباحث بيُسْرٍ في إرجاع "ميير-لوبك" (Meyer-Lübke) و"فون وارتبورغ" (Von wartburg) و"أوسكار بلوخ" (Oscar Bloch) أو "دوزات" (Dauzat) "nu " إلى "nūdus " أنَّ "nūdus " واردةٌ أيضا لدى "إرنوت مِيّي" (Ernout-Meillet)، كما يُعاينُ تجاوُرَ هذه الوحدة مع " naqaþs" القوطية، ويحيل المُؤَثِّل "فيْسْت" في تدوينه لهذا المدخل الأخير إلى مختلف الصيغ الجرمانية، ويربطه أيضا بوحدة " nakenn" الواردة باللغة الإيزلندية القديمة، وهي تفضي بدورها عبْرَ قائمة "فالك ثورْب" (Falk-Torp) إلى مدخل "nøgen " بذات التصنيف. إنه مدخلٌ يُوَجِّهُهُ (بشكلٍ عارضٍ إنْ صحَّ القول) ضمن بقية الصيغ الأخرى الاسكندنافية.

نشير في هذا الإطار إلى أنّ مصنفي القواميس التأثيلية ذات المنزع العلمي يلجأون دومًا إلى عرْض التجاوُرات مع الأشكال الأكثر قِدَما في كل لغة أو في كل عائلة لغوية. ولا يلزم أن نتوقَّعَ بمُطالعة المدخل " nūdus " ل'إرنوت- مِيّي' (Ernot-Meillet) إحالة إلى صيغة " nudo " الإيطالية، أو إلى صيغة "desnudo" الإسبانية، ولا تحضر صيغة " nu" الفرنسية إلا عند ترجمة رأس المدخل، كما لا يُشار إلى انحدار صيغة "nūdus " من اللاتينية "nūdus " سوى عبر الصيغة المختزلة: "panroman sauf roumain".

وفي تصنيف 'فيْسْت' (Feist)، لا نجد أثرًا تحت مدخل "naqaþs " لا للصيغة الأنجليزية "naked "، ولا للصيغة الألمانية "nackt"، إنَّ العلة وراء تفضيل الصيغ القديمة جليَةٌ: ذلك أن صيغة "naked " لا تبرز أثر الملمح الشفوي-اللهوي (labio-vélaire) البارز في صامت " q" ب" naqaþs " القوطية، وهو الملمح الذي يُيَسِّرُ حصول التقارُب مع " nūdus " اللاتينية، وتسمحُ بإمكانية قبول فَرَضِية ترابطها التأثيلي مع اليونانية "γυμνoς ". بذلك يتبيّن أنّ خبرة المؤثلين تتجلى بشكل أوضح في معرفتهم بالصيغ القديمة على حساب الصيغ الواردة في اللغات الحديثة، إذ هناك احتمالٌ كبيرٌ أنْ يرصُدَ المؤثّلُ الجرمانيُّ الصيغةَ اللاتينية " nūdus "، بدلَ رَصْدِ الصيغةِ الإسبانيةِ "desnudo".

حينما لا يتعلق الأمرُ بتبسيط عمليات البحث؛ وإنما بإخبار الجمهور بنتائجه، فإن تقسيم العمل لا يغدو مسموحا به فقط، وإنما يصبحُ ضروريا: فهناك حظوظ أنْ يُطالعَ الفرنسيُّ الذي اقتنى قاموسا تأثيليا للغته صيغة " naked" الإنجليزية، وأنْ تُقدَّم له معلومات عبر " n" الاستهلالية و" d" اللتان تشتركان فيهما كلّ من "naked" و"nudité"، وله كلّ الحقّ أنْ يستطلِع آراء أهل الاختصاص في شأنِ تجاوُرٍ يَستشفُّهُ، غير أنّ معظم القواميس التأثيلية المتوفّرة لنْ تروِيَ ظمأه.

وإذا تناولنا "القاموس التأثيلي والتاريخي الجديد" (Le nouveau dictionnaire étymologique et historique) ل 'جان ديبوا' و'هنري ميتيران' (Jean Dubois & Henri Mitterand) الصادر عن دار نشر 'الاروس' سنة 1964، نعاين أنه نسخةٌ مُحدثةٌ وثريةٌ ل "القاموس التأثيلي للغة الفرنسية" (Dictionnaire étymologique de la langue française) ل'ألبير دوزات' (Albert Dauzat)، سيكون من المُجحف حقا أن لا نقرّ لمؤلفي النسخة الحديثة بفضلهما في إنجاز تصنيف سهل الاستعمال يضمّ نتائجَ بحثٍ مكثفة في مجال تاريخ اللغة طوال العقود الثلاثة الأخيرة[1]. غير أنه لم تتمّ ملاحظة أيّ تقدّمٍ ملموسٍ على مستوى "التأثيل"، فقد تمّت الإشارة إلى تاريخ أول استعمال وموطنه فيما يتصل بصيغة "nu " بالإحالة إلى 'رولاند' (Roland) (1080) وإلى الأصل التأثيلي اللاتيني. غير أننا لا نعدم أن نجد قُرَّاءً يستحسنون الجرْدَ المفصَّلَ للمكافئات الرومانية، بما في ذلك الإشارة إلى التعارُضات في "nudo" (noeud) ما يُفسّر حضور الصيغة "desundo" في الإسبانية، وفي أقلّ الأحوالِ الصياغةَ المختزلةَ ل 'إرنوت مَيّي' (Ernout-Meillet) (panromain sauf roumain). وبما أنه لا مجال للذهاب أبعد من "nūdus "، فإنه يتمّ استبعادُ كلّ تجاوُرٍ مع الصيغ الجرمانية، من قبيل "naked" أو "nackt". وبافتراض أنّ المتصفِّحَ يتوفّرُ على قاموس 'إرنوت مِيّي'، ويعود إليه لاستقصاء مدخل "nūdus "، ولا يجد كلمات تتصل به، ثم يتساءل عن إمكانية ربْط " naqaþs" القوطية بصامتيْها "q" و"þ" مع "nūdus " و"naked".

نُسجّل في هذا المضمار أنّ النموذجَ المنتظرَ في القاموس التأثيلي المأمول يتعارض مع كل التطورات الناشزة التي نتصوّر هنا. مع ذلك أليس من المؤسف حينما يُحتَملُ وُجودُ تجاورٍ بين مدخلين من ذات القاموس أن تبرز صحة ذلك دونما حاجة إلى إثارة ضجّة: فقد تضمّن القاموسُ التأثيليُّ الجديد مدخل "gymno-" يُستساغُ إرجاعُه إلى الإغريقية القديمة "γυμνoζ ". أليس الأحْرى أن يُشارَ إلى الرابط التأثيليّ بين المونيمين اللغويين في موضع من مواضع القاموس؟

جَرَتْ العادة في القاموس التأثيلي الجديد كما في القواميس التأثيلية التي سبقته أو أعقبته عدم بقاء المصنفين مكتوفي الأيدي تجاه الأصل التأثيلي الذي نطالعه خارج اللسان، وإنما التساؤل عن كلّ الأصول، لا سيما تلك الكلمات الفرنسية التي تكشف عن لغة الفرنجة القديمة (Le Francique) نتيجة اعتبارهم اللغة اللاتينية هي اللغة المكتوبة، لذلك نعاين الأصول التأثيلية لهاته اللغة مسبوقة بنجمة للإشارة إلى أنها تعود في الأصل إلى صيغ رومانية معروفة وإلى صيغ مستعملة بلهجات أخرى كالجرمانية، في هذه الحالة نكتفي في غالب الأحيان بتقديم الصيغة الجرمانية أو القوطية أو الألمانية التي ثبُت استعمالها. لكن في حالة عدم حمل الصيغة الفرنجية لنجمة (وهو أمر غير محمود) نكتفي بذكر صيغة أخرى أكثر احتمالا لأن تكون مستعملةً. نستخلصُ مِمَّا سبق وجودَ حظوظ أنْ لا يُفضي تأثيلُ كلمة رومانية ذات أصل جرماني إلى شيء مُمَيّز.

مثال ذلك: كلمة "guère" (guaire) (1080 Roland) المأخوذة من اللغة الفرنجية: "waigaro"(: كثيرا)، فما فائدة ورود هذا اللفظ الفرنجي منعزلا؟ إن الأحرى، بل الأطرف، في الكشف عن مستوى اللغة الرومانية المستعملة في العصر الوسيط، هو المزيد من التقصّي إلى حين الوصول إلى "Waygarôn "، أصل الكلمة الألمانية (Sich): "Weigern" (: امتنع عن)،

[1]- نُسجّل مع ذلك بكامل الحسرة معالم إهمالٍ أو تسرُّعٍ، على الخصوص في البحث عن الأصول التأثيلية اللاتينية (etyma latins): مثلما هو الحال في " contracta" ضمن مدخل "contrée" و"canus" ضمن مدخل "chenu" (..)، وفي إيراد "Loris" بَدَلَ "Lorris".

المأخوذ بدوره من الصفة "Weigar" بمعنى "أرعن" (: من يركب رأسه)، الذي أفضى إلى توليد الظرف "Waygarô"، وقد اكتسب معنى " follement " (إلى أبعد حدّ)، كما في: "follement Drôle" (غريب إلى أبعد حدٍّ).

حينما نعاينُ بالقواميس التأثيلية كلمة "werra *" كأصل لاتيني ل "guerre" (حرب)،فإن المصنِّفين يحجمون (خطأً) عن ذكر "wërra" باللغة الألمانية القديمة العُليا، بمعانيها المتعدّدة الدالة على "bagarre" (الشجار)، ضمن ما اصطُلح عليه ب"rixe" الدال على الصراع. تطفح الألمانية العتيقة بالكلمات الدالة على الصراع والمعركة والحرب بدءًا بالمصطلح العتيق المستمدّ من الهندوأوربية (" guþ " > "-guþ" الوارد بالأنجليزية القديمة) والذي احتفظت به الفرنسية في صيغة "gonfalon" بينما شاع اللفظ في اللغة الرومانية إلى درجة استبعاد " bellum" بسبب تجانُسِه مع "bellus" ("beau": جميل)، وهو حديث النشأة ويندرِج ضمن اللغة المألوفة المُتداولة.

يُفتَرَضُ في ذات الكلمة "guerre" نمطٌ آخر من الإحالة يُستَلزمُ ثبوتَه بالقواميس التأثيلية ذات المنزَع العلمي. ومن الطبيعي استبعاد الإحالة على الصيغ اللهجية، غير أنه بالإمكان قبول حالات خاصة، كصيغ الغالية- الرومانية الشمالية، وصيغ الفرنجية وصيغ النورماندية وصيغ البيكاردية وكلها من الأشكال اللهجية استقرّت باللغة الانجليزية. ومن غير المستساغ الحديث عن الأنجليزية كأنها شبيهة باللسان الروماني، كما أنه من المشين معرفة أن الكثير من الرومانيين يجهلون الموارد التي يتيحها معجم لسانهم.

من بين الصيغ المشتقة عن صيغة ""werrā * " (werzā* <) الجرمانية لا نجد فقط "guerre" الفرنسية و"guerra" الإيطالية والإسبانية، وإنما أيضا: "war" الأنجليزية، مع أن هذه الصيغة (: "war") لا تُعتبَر تطوّرا محضا داخل الأنجليزية من أصل أوّلي "werrā * "، إنما هي دخيلٌ مقترضٌ عن لهجات الشمال الغربي لبلاد الغال، ولم يقم المتحدثون بهذه اللهجات بتشديد "w " الجرماني ليصبح "-gw". ومن الواضح أن كلمة "werra *" لا يُمكن أن تأخذ في اللسان الجرماني المعنى العام المتداوَل بالألسنة الرومانية، وإنما المرجّح أنَّ اللسان الجرماني استمدّه من مصدر فريد هو "guerra " المتداول بالإيطالية والإسبانية، والمرجّح أيضا أنه مُقترَضٌ عن اللسان الفرنسي القديم.

أشار القاموس التأثيلي لصاحبه "دوزات" (Dauzat) إلى التركيب: "-gegen Gegend " واللاتيني "contra-contrata "، وقد آثر المؤلفون الجُدد تخطّي ما يُثيره من لبس، بينما كان الأولى الإشارة إلى ملامح أخرى في ذات الباب، من قبيل انتقال "causa" بالمعنى القانوني ل"cause " إلى "chose" الموجود في الألمانية بصيغة "sache"، وتنشز عنه صيغة "sake" الأنجليزية. ويبدو أنّ "دوزات" جانَبَهُ الصواب حينما افترضَ وجودَ تأثيرٍ من الجرمانية في تفسير التطور الدلالي ل "on"، وإذا كانت الاستعمالات غير المحددة ل "homo" قديمة، فالأجدى تعيينُ التوازي القائم بين الجرمانية والفرنسية، على الرغم من أنّ اللفظَ لمْ يتولّد في الجرمانية.

يتأكّد بذلك نوع الحُجج التي يُمكن توظيفها في حالة معالجة الأصل التأثيلي الفريد (L'étymon isolé): فإذا كان من اللازم أن يكون التصنيفُ سهلَ الاستعمالِ وبثمنٍ معقولٍ، وَجَبَ الاقتصارُ على الأنْجَعِ في بناء القاموس التأثيلي الفرنسي مع صُعوبة الاستغناء عن ما يتعلّقُ بتاريخ الكلمةِ الفرنسيةِ لا سيما حينما لا يجدُ القارئ أيَّ معلومةٍ عن المدخلِ المنشودِ في القاموس التأثيلي بلغةٍ

أخرى. إنّ الاقتصادَ ميزةٌ مُحبّذةٌ في التصنيف المُوَجَّه إلى عُموم القرّاءِ وفي التصنيفِ العلميّ كذلك، ما يقتضي الاكتفاء بما هُو وظيفيٌّ في مُعالجة هذا المدخل أو ذاك.

إنَّ التسليمَ بما سبق لا يَتأتَّى إلاّ في حالة سَرَيان مبدإ الأصْل التأثيليّ الفريد (L'étymon unique)، وهو ما لا يتحقّق دَوْما: إذْ يتمُّ إرجاع "philosophe" إلى اليونانية " φιλόσοφος " عبر "philosophus" اللاتينية. كما أنّ الأصلَ اليونانيَّ يرتبِطُ بدوْرِهِ ب: "φίλος " و"σοφός "، وفي تأثيل "éléphant" تَمَّ إرجاعُ اللفظ – مُرورا ب "elephantus" اللاتينية- إلى اليونانية "ἐλέφας, -αντος". لكن لِمَ الوُقوفُ عندَ هذا الحدّ؟ فمن المُؤكَّد أنَّ "ivoire" و"éléphant" يرتبطان بنفس الأصل التأثيلي، وقد كُنَّا نأملُ الإشارة إلى هذه القرابة، وتأثيل اللفظين إلى حين توضيح علّة هذه القرابة.

إضافة إلى ما سبق، حينما يكون الربطُ الصوري مجهولا - وما إن يُحتمل من الخبراء باللغة الإغريقية إبلاغنا بما يعلمون- فإننا لا نذهب إلى أبعد من اللاتينية: إذْ لا يُشارُ في "huile" وفي "olive" إلى الأصول التأثيلية الإغريقية " ἔλαι(w)ον "، " ἐλαί(w)ᾱ ". وإذا توخَّى المصنف دراسة الأصل التأثيلي، فقد يخال القارئ بأنّ الأصلَ التأثيليَّ ل"samovar": "samo-" ول "varit": "var" (سَلْق) أكثرُ ثراءً من الأصل التأثيلي ل "philosophe" ول: "monochrome" وهما اللفظتان المتداولتان لدى كلّ مثقفٍ فرنسيّ.

الواقعُ أنّ تقسيم العمل بين الباحثين يستلزم من هؤلاء تحديد التصانيف الموجّهة إلى عموم القرّاء. نلاحظ في فرنسا –نتيجة توظيفِ المؤسسات الجامعية لمجموعة كبيرة من أساتذة التعليم الثانوي- أنَّ غالبيةَ مُصنّفي القواميس التأثيلية مُطَّلعون على الثقافة الكلاسيكية، ويتقنون اللغات الغالية-الرومانية، وليس لهم خبرة خاصة بالجرمانية والسلتية والعربية، ولا باللغات الرومانية الأخرى غير الفرنسية. ينتُجُ عن هذا الأمر إصدارُ قواميس تأثيلية تتوجّه إلى جمهور لا يطّلع سوى على معلومات تربط الفرنسية باللاتينية والإغريقية. غير أنّ المشكل لا يقف عند هذا الحدّ، فالفصل القسري بين القاموس التاريخي والقاموس التأثيلي تحت ضغط الناشرين لا يدفعنا إلى خيانة جمهور القرّاء بِجَعلهم يعتقدون بأنّ كلمة "fondre" –على سبيل المثال- تعود في الأصل إلى "fundo" اللاتينية والسكوت عن الروابط العريقة التي يقيمها اللفظ مع "chyme" و"Lingot". لا سبيل إلى إنجاز أبحاثٍ تأثيلية –خلافًا لبقية تخصصات علم اللسانيات- سِوى من لدُن فريقٍ من الباحثين، فمهما اتَّسعتْ معارفُ المُؤَثِّل، فلا يُمكنه إيجاد كل التجاوُرات الممكنة للمدخل القاموسي بالدقة المطلوبة.

نَشَرَ "خوان كورومينَاس" (Joan Corominas) سنة 1961 بدار نشر "جريدوس" (Gredos): "القاموسَ التأثيليَّ المختصرَ للسانِ القشتالي" (Diccionario Etymológico de la lengua Castellana) وهو صيغةٌ مختزلةٌ لتصنيفه القَيِّم: "القاموسُ النقديُّ التأثيليُّ" (Diccionario Critico Etymológico) الذي أصدره عقدًا زمنيًا قبل هذا التاريخ. وقدْ توَجَّه بهذا التصنيفِ المختصرِ إلى من يُطلق عليهم في فرنسا ب"النخبة المثقفة"، ذلك ما يتأكّد بجلاء في المقدّمة. وقد أشار المؤلّف أن اختصارَه للعمَلِ السابقِ أفْضَى به إلى تحرير مادةٍ جديدةٍ في كلّ مدخلٍ من مداخل القاموس، لأنه كان واعيًا كلَّ الوَعْي بأنّ العملَ المختَصَرَ غير مُوَجَّه للنخبة؛ وإنما إلى جمهورٍ عريضٍ غيرَ مُؤَهَّلٍ للاطلاع على رصيدٍ مُعجمِيّ أكثرَ دقَّةً وتفصيلاً. غير أن اختصاره دفعه إلى تقديم صياغاتٍ مبهمة -لا سيما على مستوى التقابلاتِ الصوتية- بإمكانها أن تخلق تصوّراتٍ خاطئة لدى القُرّاء الذين يعتقدون بأنْ لا أهمية للمصوّتات والصوامت (حينما تتغير بين صيغة وأخرى). ومع ذلك لا يسعُنا إلا التنويه بمجهوده المحْمود. لكن هلْ تنبَّه المصنِّف إلى تجاوُراتٍ لمْ

يُثبتها في القاموس التأثيلي المُفَصَّل الذي كان موجَّها في الأصل لأهل الاختصاص؟ فلا نجد في المفصَّل الربط بين "elefante" و"marfil" وبين "fundir" و"quimo" و"Lingote" كما هو الحالُ في القاموس الفرنسي المُشار إليه أعلاه الذي عقدَ الصلةَ بين "éléphant" من جهةٍ و"ivoire"، و"fondre" و"Chyme" و"Lingot" من جهة أخرى. من المُحتمل أنَّ الأسبابَ التي سوَّغت الربط بين كلّ هاته الصيغ في الفرنسية لا تسري على الإسبانية، كما أنَّ مُمَيِّزات قاموس "كوروميناس" (Corominas) تحُول دون اتهامه بنزعة التقليد والمُحافظة.

يصطدمُ مُؤَثِّلُ اللغة القشتالية بالكثير من المشاكل بسبب تنوُّع موادِّها وتعقُّدها ما لا يُدركه سوى أهل الاختصاص، وكيفما كان نوعُ الجمهور الذي يتوجّه إليه "القاموسُ التأثيليُّ المختصرُ"؛ فإنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ إلى مقارنة آرائه الشخصية بما وردَ في تصانيف أخرى لاستيعاب طبيعة التجاوُرات التي أثبتَها بين الصيغ. إنَّ ما يُحسَب لصالحِ المُصَنِّفِ رغبتَه الأكيدة في تحديد المدى الجُغرافي للموادِّ المدروسة، على الأقلّ في نطاق اللغات الرومانسية، لقد كان القشتاليُّ "كوروميناس" حريصا على ضبط مدى انتشار الرّصيد المُعجمي في الفضاء الإسباني وخارجه نحو الشَّمال. والأملُ معقودٌ أنْ ينهجَ مصنفو القواميس التأثيلية هذا النهج، بعدم التضحية بالجغرافيا لصالح التاريخ. نشير في هذا السياق بأنّ تحديدات "كوروميناس" المتصلة بمدى انتشار الموادِّ لا تُؤثِّرُ سلبًا على حرصه على التوثيق التاريخي.

وَلَّدَ تنوُّعُ أصولِ الرصيدِ المعجميّ للأنجليزية لدى المؤثِّلين البريطانيين ذوقًا رهيفًا واهتمامًا عارمًا بالتجاورات القائمة بين الصيغ التي تعود إلى أصول شتَّى، وهو اهتمامٌ قلَّما نجده لدى نُظرائهم من المؤَثِّلين ببقية الأقطار الأوروبية. وهم يَرَوْنَ أنَّ القُرَّاء لن يُواجهوا إمكانية ربط الكلمات "found"، "fuse"، "ingot"، "gut"، "gush"، "geyser"، "chyle"، "chyme" بذات الأصل "GHEU" المنحدرِ من الهندوأوربية باللامبالاة سواء بعبور المَسْلَك اللاتيني أو الجرماني أو الإغريقي قبل أن يحطّ الرحالَ باللغة الأنجليزية.

كانَ المُؤَثِّلون (الأكثر نشاطا) في البداية من الجرمان مُزوَّدينَ بثقافةٍ تراثيةٍ تسمحُ لهم بمعرفة اللغات الهندوأوربية على نحوٍ عامّ، كما مكَّنتهمْ خبرَتهم بالفرنسية –التي ظلّت تحتل المرتبة الثالثة ضمن المصادر التراثية بالمملكة المتحدة- وباللاتينية من معرفة أصول التأثيل باللغات الغالية- الرومانية، لذلك لا غرابة أن نطالع بتصانيفهم تحليلات وافية وشاملة للرصيد المعجمي الذي يَجِدُ أصولَه الأولى في الهندوأوربية.

إنّ الكلمات ذات الأصل الأجنبي-ومن ضمنها الدخيل من اللغات السامية- لمْ تلْقَ العناية اللازمة من لدُن المؤثلين، وقد خالفَ هذا النهج "إرنست كلاين" (Ernest Klein) في تصنيفه المُعنون ب"قاموس تأثيلي شامل للغة الأنجليزية" (A Comprehensive Etymological Dictionary of the English Language)، وقدْ صدرَ المجلدُ الأولُ منه [أيْ سنة كتابة 'مارتيني' لهذا المقال: 1966] (A-K .XXVI+853 .P17*25CM)، إذْ لا يُسلّم المُصَنِّف بواقع إهمال تأثيل الكلمات ذات الأصل الهندوأوروبية: ويشير إلى أن اللغة "التوخارية" (Le Tocharien) [ازدهرت بالقرن الميلادي الأول بأقصى آسيا بالصين] تقوم بدورٍ محوريّ في المقاصد التأثيلية بالهندوأوربية. نَسْتشفُّ مَيْلَ المصنِّفِ إلى استحضار تلك التجاوُرات الضاربة في القِدم بكلّ الاتجاهات (كيفما كان مهْدُها الأول). تتوضّح صعوبة هذه المهمّة حينما يكون العملُ فرديًا لا جماعيًا بالتمثيل بمدخل "elephant"، إذْ نُعايِنُ معالجةَ الأصلِ التأثيليّ (: الأثْل) اليوناني والتجاورات المرتبطة به (التي نأسف لعدم وجودها بالتصانيف التي سبق ذكرها أعلاه) بذكر

إحالات أساسية على "ivory" و"Eburna" (ولِمَ الحرف الكبير في الإحالة الأخيرة؟)، وبالإحالة كذلك على "element" القليل الورود، وسنعود إليه لاحقا.

إن المعطيات الجديدة التي يتضمّنها هذا المدخل هي الاسم المصري "Yebu" لجزيرة الأفيال، والكلمة العبرية "ivoire"، "shen-habbĪm" الدالة حرفيا على معنى "سنّ الفيل". كُنّا نأمل أنْ يُشارَ –إضافة إلى "فيل" العربية "fĪl" (التي كُتبتْ بالمناقلة الصوتية: "phĪl"، وهو ما يدعو إلى الاستغراب)- إلى الاسبانية "marfil" (:عاج) التي تثير معنى خاصا لدى بعض القرّاء.

يتميّزُ هذا القاموسُ على نحو عامّ بثرائه في ذكر المتجاورات ذات القرابة مع المدخل المدروس كلما ارتبط بالساميات حيث يُسهِب المصنِّف في عرضها، كما يعرض أيضا الصيغ الجرمانية المرتبطة بها، تبرز هذه الأخيرة أنه لم يقدِّم اجتهادات خاصة لأنه استثمر مضامين مداخل القواميس التأثيلية الأخرى.

اكتفت القواميس التأثيلية الرومانية – على غرار القواميس التأثيلية الفرنسية السبّاقة في هذا المجال- بذكر تطور الكلمة دون اهتمام بامتدادها الجغرافي (ومواطن استعمالها).

يبدو في معظم الحالات أنّ اختيارَ رؤوسِ الموادِّ – ما سُمِّي على الطريقة الأنجليزية ب"المداخل" (Entrée)- كان وليدَ رغبةِ المصنِّفِ في تقديم التأثيلات التي يَميلُ إليها: لا عِلْمَ لي بوُجود كلمة "alcazaba " (القصبة) في الأنجليزية بمعنى "الحصن". ويستبدّ بي الفضول لمعرفة كم عددُ الناطقين بالأنجليزية ممّن لم يضعوا أقدامهم قطّ بالجنوب الإسباني يثير في أذهانهم لفظ "alcazaba " معنًى، مع أنّ اللفظَ في الإسبانية ذاتها مجرّد اسم علم.[1] كما أنّ كتابةَ مستهلّ كلماتٍ ألمانيةٍ دخلتْ إلى الأنجليزية بحروف كبيرة، مثل: "Gestalt"، و"Gestapo" يدعو إلى التساؤل عن خطّة المصنِّف في كتابة مداخل القاموس: إنَّ القاموسَ التأثيليَّ للغة الأنجليزية ما هو في نهاية المطاف سوى قنطرة لتقريب كلماتٍ مستمدّةٍ من ألسنةٍ مُتعدّدةٍ ومُتباينةٍ. إنَّ كلمةَ "Gestalt" ليست أنجليزية بالنظر إلى تفضيل المُصنّف كتابة مستهلّها بحرفٍ كبيرٍ (Majuscule).

وإذا كانت بعضُ القواميسِ المعاصرةِ كادَ فيها التاريخُ أنْ يُقصي التأثيلَ؛ فإنّ قاموسَ 'إرنست كلاين' نَهَجَ خلافَ هذا النهْج، فورودُ التجاورات الواقعية أو المفترضة كانَ على حِساب التأْريخ لها. إنّ الغيابَ المطلقَ للإشارات المرتبطة بتاريخ استعمال الكلمات المدروسة أمرٌ مثيرٌ للدهشة، لا سيما أننا نعلم أنّ الأنجليزية هي اللسانُ المتميّزُ بتوفُّره على الوثائق التي تُيسّر مهمّةَ التحديد الزمني للوحدات اللغوية: يكفي أن نتوجّه إلى قاموس "أكسفورد" (Oxford) لنستطيع تخصيصَ بُعدٍ ثالثٍ لكلّ مادةٍ (هو البعدُ الزمني).

إنّ القارئ يكونُ أقلّ فقرًا في حالة التحديدِ الجُغرافيِّ لكلّ لفظٍ، لأنَّ جرْدَ الوحدات القريبة منه بشكل شبه شامل يمنحُ فكرةً تقريبيةً عنه بشكلٍ ملموس. لكنّنا لا نجد أيَّ شيء فيما يتصل بجغرافية كلمة "anglais" ذاتها. من الجليّ هنا أيضا أن "anglais" مجرّد ذريعة.

غالبا ما تثيرُ الاختيارات التأثيلية المقترحة الجدلَ: فليس هناك تأثيلٌ مُقنعٌ بخصوص الكلمة اللاتينية "elementum "، فمنْ يقترحُ تحليلَ اللفظِ إلى "el-em-en-tum" يرى في ذلك إحالةً على التشكيل الأبجديّ. يلجأُ من لا يقتنع بهذا التأثيل إلى الاستشهاد بعناصر معروفة ومستعملة، وليس بحوْزتنا سوى مقترح المُؤَثِّل 'كلاين' (Klein) الذي يقترحُ صيغةً لاتينيةً غيرَ مُستعملة: "elepantum * " بمعنى "حرف عاجي" (lettre d'ivoire)، وهو معنى مُتخَيَّلٌ،

[1]- من المثير أن 'أندري مارتيني' لا يشير البتّة في هذا المقام إلى أصل المفردة من العربية مع أنه يعلم بعض خصائص اللغة العربية.

مثلما هو الحالُ في الصيغة التي يُفترَض أنها وَلَّدتْ اسمَ المفعولِ: "ἐλέφαντα". وقد أرْجعَ الانتقالَ منْ "elepantum" إلى "elementum" بشكلٍ اعتباطيّ إلى اللغة "التروسكانية" (étrusque) [التي كانت متداولةً بالجنوب الإيطالي ووسطها من القرن الثامن قبل الميلادي إلى القرن الثاني قبل الميلاد].

إنّ التحليلات الدلالية بهذا القاموس لا تبعثُ على الرضى والارتياح: بإمكاننا قَبول إدراج المصنّف ل "alcazaba" إذا كانت مادةُ هذا المدخلِ مَبْنيةً بشكلٍ دقيقٍ ومتسقةً؛ غير أننا نُطالع تفسيرًا يُبرّرُ كيفيةَ اشتقاق كلمةٍ دالةٍ على مدينة أو عاصمة أو حصنٍ من فِعلٍ دالّ على القطْع والفصْل. علاوةً على ذلك يُقدّمُ المُصنّف تفسيرا جُزئيا يتّصفُ بالإيحاء، يتركُ القارئَ في حيرةٍ منْ أمْرِهِ: مثال ذلك كلمة "garrymander": فِعْلٌ يُعيّن عمليةً في قمّة الحداثة بفرنسا في أيامنا الراهنة، تخصُّ تقسيمَ الدوائرِ الانتخابيةِ بشكلٍ يمنحُ الحظوظَ الوافرةَ للحزب كيْ يفوزَ بأعلى نسبةٍ. يذكُرُ المُصنّف في محاولاته التأثيلية بأنّ "Gerry": اسمُ عاملٍ "ماساشوسيث" (Massachusetts) الأمريكية، يَفترض القارئ أنه كان مختصًّا في التقسيم الترابي للدوائر، غير أنّ اقتطاع المقطعين الأخيرين من اسم "السمندل" (Salamander) لا مُبرّر له ما عدا إذا تخيّلنا أنَّ التقسيمَ أخذَ شكلَ طائرِ السمندلِ على الخريطة.

إننا إزّاء قاموسٍ تأثيليّ تمَّ تحريرُه وفْق أذواقِ مُصنّفه ومداركِه وميولِه، لا بإرضاء التطلُّعات المشروعة لجمهور القُرّاء. إنه قاموسٌ مُوَجَّهٌ لأهل الاختصاص مع أنه يفتقدُ للعِلْمية، لا شكَّ أنَّ المصنّفَ عادَ إلى أمّهات المصادر، غيرَ أنَّ مُتَصَفّحَ القاموس سيُصابُ بالإحباط نتيجةَ عدمِ إلمامِه بالمعلومات التأثيلية المتصلة بالمداخل، ونتيجةَ فَقْرِ المُعطيات التي يتطلَّعُ إليها القارئ.

يَبْقى من الضروري بخُصوص القواميس التأثيلية غير العَمَلية أنْ يعْمَدَ مُصَنّفوها إلى توْفيرِ قدْرٍ كافٍ من التجاوُرات التأثيلية والمعلومات التاريخية، وتحديد المواقع الجغرافية التي تُستعمل بها الكلمات سواءٌ داخلَ مجالٍ بعينه في لسانٍ ما أو خارجَ هذا المجال، وإشارات تخصُّ التنوّعات الدلالية والبدائل المُنافِسة للكلمة التي يَحسُنُ استبعادُها أو إقصاؤُها، مع ذِكْر منْ قامَ بإزالتها من اللائحةِ المُرَشَّحة. كما أنّ استحضارَ بعضِ عناصرِ الأصواتية التاريخية بمقدّمة القاموس التأثيلي لا جدْوى منه، إذْ لا نَأمَلُ منْ مُستعملي القاموس الاستفادةَ من هذه المُعطيات كما أن هناك احتمالٌ ضعيفٌ لاستثمارها في إعداد الجُذاذات. أمّا ما يلزمُ من المُصنّفِ التركيزُ عليه هو تحريرُ كلّ مادةٍ بشكلٍ لا يَخْلطُ القارئُ في تطوُّراتها الأصواتية المطردة مع الإشارة إلى مختلف التأثيرات الصورية التي عرفتها الكلمةُ والاقتراض عن شكلٍ كتابيّ مُغايرٍ.

خُلاصةُ القولِ إنَّ المُؤَثِّل مُلزَمٌ بذكر التحوُّلات الواقعية التي عرفتها الكلمةُ طوالَ مراحِلها التاريخية في لسانٍ ما، أو في إطارِ التداخلِ بين ألسنةٍ متعدّدةٍ حيثُ تتواجدُ الكثير من القطيعات والتداخُلات اللاواعية، والاستحداثات الاعتباطية بذكْرِ أسْبابِ وُقوعِ التطوُّرِ وكيفياتِه وأنواعِ التأثيرِ وجرْدِ المُقترضات مَعَ تحْديدِ مصادرِها الأصْليةِ.

لا يتطلَّبُ تحقيقُ الغايات السالفةِ الذكرِ العملَ الجماعيَّ بيْنَ أهْلِ الاختصاصِ منْ تخصُّصاتٍ مُتنوّعةٍ فقط؛ وإنمَا أيضًا مِراسَ المُؤَثِّلين وجدّيتهم والنفسَ الطويلَ، وهي عناصرٌ ضروريةٌ لكلّ مشروعٍ طويلِ الأمَدِ، عَلاوةً على توفُّرِهِمْ على حِسٍّ رهيفٍ بالنظام الداخلي لكل لسان.